

الإمارات والسلطنات الإسلامية في إفريقيا وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية (شرق إفريقيا نموذجاً)

د. نور الدين عوض إبراهيم*

ملخص البحث :

يتناول هذا البحث :

جهود الممالك والإمارات الإسلامية التي ظهرت في إفريقيا وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية - حالة شرق إفريقيا نموذجاً - حيث كان لهذه الممالك والإمارات الأثر البارز في التغيير الحضاري والثقافي الذي انتظم المنطقة وقد جاء هذا البحث في أربعة مباحث كان المبحث الأول توطئة حول علاقة إفريقيا بالجزيرة العربية قبل الإسلام إذ كانت هناك صلات واضحة بين المنطقتين منذ القدم وأيام السبئيين والمعينيين ثم المبحث الثاني عن الرحلات التجارية والهجرات الإسلامية وأثرها في قيام هذه الممالك الإسلامية . أما المبحث الثالث تناول أهم وأبرز هذه الممالك والإمارات وفي المبحث الرابع قمت باستعراض لتأثير هذه الممالك في الحياة الإفريقية وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الراقية والعلوم المختلفة في شتى المجالات في تلك المجتمعات الأمر الذي كان واضحاً للعيان وأشاد به الرحالة والمؤرخون الذين زاروا تلك المناطق .

* أستاذ مساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية كلية الدعوة .. مدير إدارة المناشط بكلية تنمية

المجتمع بجامعة أم درمان الإسلامية

توطئة :

علاقة إفريقيا بالجزيرة العربية قبل الإسلام :

قبل الحديث عن الممالك الإسلامية وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في القارة البكر ، يجدر بنا أولاً أن نتحدث عن مدى علاقة إفريقيا بالجزيرة العربية وعمق تلك العلاقة التي كان لها الأثر الكبير فيما بعد على عملية انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية في إفريقيا ، كما كانت هذه العلاقة عاملاً مهماً في بروز العديد من الممالك والإمارات الإسلامية وممهدة لظهورها . إذ إنه كانت هناك علاقات قديمة ووثيقة بين شرق إفريقيا والبلاد الأخرى التي تفصلها عنه مياه المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر ، كالجزيرة العربية والهند وفارس . بل كان السفر عبر المحيط إلى هذه البلاد سهلاً وميسوراً ، وقد كان المعروف عن العرب أنهم أهل تجارة ، وكذلك بلاد فارس وبلاد الهند . وكانت الجزيرة العربية معروفة لأهل إفريقيا كذلك ، وهذا كان قبل الإسلام بمئات السنين . وكثيراً ما يجد الناظر في مجتمع الجزيرة العربية آنذاك ، أفراداً من أهل إفريقيا الذين برز منهم بلال الحبشي - رضي الله عنه - وغيرهم من التجار الأحباش ، ومحاولة أبرهة الحبشي غزو مكة قبل الإسلام لهي دليل آخر على تلك العلاقة ، إذ كانت الإمبراطورية الحبشية - مملكة أكسوم وقتها - تسيطر على اليمن في جنوب الجزيرة العربية (1).

يقول سبنسر ترمنجهام : ((أما العرب فكانت رحلاتهم إلى الساحل الإفريقي هي أقصر تلك الرحلات وأقربها ، وأكثرها سهولة ويسراً . وقد استوطن كثير منهم على الساحل وأدخلوا زراعة جوز الهند وقصب السكر التي لم تكن معروفة من قبل (2) .

وهناك أمورٌ طبيعيةٌ سهلت الاتصال بين شرق إفريقيا وسواحلها وبين كثيرٍ من البلاد الأخرى ، وهذا العامل الطبيعي هو الرياح الموسمية حيث كانت تهب في شهر ديسمبر متجهةً نحو الشمال الشرقي ، بينما يتكرر هبوبها مرة أخرى في شهر إبريل متجهةً نحو الجنوب الغربي ، فقد كانت هذه الرياح تحمل أهل الساحل الإفريقي في زنجبار إلى الهند ثم إلى ساحل جزيرة العرب في الجزء الجنوبي ومضيق عدن .

والتجار المغامرون العرب يركبون سفنهم من الساحل في الشتاء فتوصلهم إلى ساحل القارة الإفريقية . وهكذا كانت الصلات مستمرة .

ويبدو كما ذكر جيان (3) : ((أن بلاد العرب كانت مركز التجارة بين المشرق والمغرب ، وأن العرب هم الذين استكشفوا لأول مرة تلك البلاد الكائنة جنوبي بوغاز المندب وحتى حدود سفالة جنوباً ، ثم إن باقي الأمم لم تصل إلى هذه البقاع إلا بعدهم وبواسطتهم)) .

والذي يظهر مما أورده المسعودي وغيره من الرحالة (4) : أن وجود غير العرب في إفريقيا كان مؤقتاً ، أما العرب فقد تواصل وجودهم بها ، كما وصلوا شواطئ جنوبي وشرقي آسيا ، واتجروا مع سكانها واستقر بعضهم في أماكن عرفت كمراكز تجارية مشهورة ، حيث ثبت وجود عدة مستعمرات عربية على سواحل الهند والصين .

وبذلك اتسعت آفاقهم التجارية ، وكثرت مصادر مواد التجارة ، فكثر ترددهم على تلك الأسواق ، بل نظموا إليها الرحلات ، وتطورت صناعة السفن عندهم ، وكبر أحجامها حتى تستطيع عبور المحيط الهندي ، وليمكنها استيعاب تلك السلع التجارية المتنوعة . وأضحت سفنهم تمخر عباب المحيط الهندي إلى شواطئ آسيا ، لتعود محملةً بالتوابل من الهند والجواهر من

سيلان ، والقرنفل وخشب الصندل من الهند الصينية ، والفلل من ملبار ، والنحاس من كلبانا والمسك من السند ، والحريير الخام والصيني من الصين فيأخذون من كل ذلك حاجتهم في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وتذهب سفنهم بالباقي إلى أسواق شرقي أفريقيا ، لاستبداله باللبان والبخور وسن الفيل والبن والعاج والذهب وغيره (5).

وتذكر بعض المصادر أن العرب عرفوا إفريقيا قبل الإسلام بعدة قرون ، حيث يذكر المؤرخ ((بطليموس)) أن العرب في النصف الثاني من القرن الأول للمسيح - عليه السلام - كانوا قد بدأوا يتجرون مع إفريقيا ، ويصلون بقوافلهم إلى حدود الموزمبيق (6).

ولقد سجلت كتب المؤرخين كثيراً من الأخبار عن هجرات القبائل العربية إلى مشرق إفريقيا واستيطان العرب للعديد من الجهات الداخلية في القارة الإفريقية ، وحول النيل ومنابعه وبحيراته، كما هو مشهور في القصة العربية المشهورة ، قصة سيف بن ذي يزن (7) .

وبلغت هذه الهجرات أقصاها ما بين عام (500-1500) قبل الميلاد ، في عهد دولتي سبأ ومعين . فقد جاءت أفواج عربية من الجنوب تحمل مظاهر الحضارة السبئية الزاهرة ، وعلموا المواطنين استعمال المعادن وأنظمة متقدمة في الري والزراعة ، وأنماطاً جديدة للنظام الجماعي وفن الكتابة . ونشر العرب لغتهم وثقافتهم على السكان الذين نزلوا بينهم واختلطوا بهم ، فغيروهم تغييراً كلياً (8) .

وهكذا أصبحت تلك المرتفعات مركزاً لنشر الحضارة العربية الراقية وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحر الأحمر وتوغلوا في إفريقيا حتى وصلوا وادي النيل .

وشيد هؤلاء المهاجرون العرب مراكزهم التجارية على امتداد الساحل وجزره على نمط مدنها التي أتوا منها ، فقد عثر (جارس ماثيوز) سنة 1950م ، في الجزر الكثيرة التي نقب فيها قريبا من ساحل تنزانيا الجنوبي على كثير من الآثار التي تؤكد استيطان العرب في تلك الأنحاء قبل الإسلام بعصور بعيدة ، من ذلك ما وجدته في جزيرة (سنجي يا كاتي) بالقرب من كلوة ، من منازل صغيرة مستطيلة الشكل من الحجر المتقن الرصف ، تجمعت كلها منزلاً جنب منزل حول قلعة ما زالت جدرانها ترتفع ستة عشر قدماً فوق الأرض ، وهي أقدم منزلة تجارية في تلك الجزر عثر عليها حتى الآن (9) .

ولقد نمت تلك المراكز التجارية العربية وازدهرت ، بنمو التجارة وازدهارها وازدياد الوافدين عليها للتجارة أو للاستيطان وأصبح العرب يحكمون في الصومال وما وراءه قبل الميلاد ، كما كانت زنجبار خاضعة لسلطان عربي . ودخل المهاجرون والتجار العرب مع الإفريقيين في صلات اقتصادية واجتماعية ، فتزوجوا منهم ، وتوطدت هذه العلاقات ونمت ، مما أدى إلى ازدهار التجارة ورواجها ، ومزاولة العرب لشتى أنواع النشاط الإنساني الذي كان سائداً هناك .

ولما كان العرب أكثر منهم حضارة ورقياً نظر إليهم الإفريقيون نظرة إعجاب وتقدير ، ورحبوا بالدخول معهم في علاقات اجتماعية ، وتطلعوا إلى تعلم لغتهم ليتحدثوا بها ، لما تتيح لهم من آفاق واسعة في التجارة والتعامل التجاري (10).

وهكذا يتضح لنا أن الصلات بين إفريقيا والعرب قد بدأت في وقت مبكر قبل ظهور الإسلام بل حتى قبل الميلاد بقرون عديدة ، وأصبحت هناك

علاقات اجتماعية وتزاوج واختلاط بين الفريقين ، إضافة إلى العلاقات والوشائج الأخرى ، الأمر الذي لم يجعل من العرب قوماً غرباء على إفريقيا عند قدوم الإسلام إليها.

الرحلات والهجرات الإسلامية وأثرها في ظهور الممالك الإسلامية

كان ظهور الممالك الإسلامية في القارة الإفريقية متدرجاً عبر مراحل وخطوات كان لكل خطوة أو مرحلة عمل مهم في قيام هذه الممالك والإمارات التي تولت فيما بعد عملية نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في مختلف بقاع إفريقيا .

ولعلي هنا أشير إلى مرحلتين أو خطوتين كانت النتيجة النهائية لهما هي قيام هذه الممالك الإسلامية وهما : الرحلات التجارية للتجار المسلمين بين القارة الإفريقية والجزيرة العربية ، خاصة تلك التي كانت تتجه إلى منطقة شرق إفريقيا . ومن هنا ساقترص في حديثي عن الممالك الإسلامية التي نشأت في منطقة شرق إفريقيا مبيناً أثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية هناك ، باعتبارها أنموذجاً ومثالاً لرصيفاتها في غرب القارة .

أما الخطوة الثانية التي تمت في هذا الجانب وأسهمت في تكوين هذه الممالك فهي الهجرات الكبيرة لبعض القبائل والجماعات المسلمة التي حدثت في أوقات متفرقة صوب مناطق شرق إفريقيا وساحلها الشرقي ، وكانت حصيلتها مع حركة التجارة النشطة هناك هي هذه الممالك الإسلامية المباركة كما أنني لم أفصل القول في هذا الجانب أو أسهب في الحديث حول حركة التجارة والهجرات وأثرها - حيث إن هذا الجانب له محور منفصل - ولكنني سأشير بإشارات موجزة ومهمة للتمهيد الذي أحدثته حركة التجارة والهجرات وأدى لبروز الممالك الإسلامية في قارة إفريقيا .

أولاً : الرحلات التجارية :

منذ أن دانت شبه جزيرة العرب بالإسلام ووجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبائلها المتحاربة تحت لوائه ، أصبحت قوافل المسلمين التجارية تسير بين جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها (الشام والعراق) في أمن وسلام ، خصوصاً بعد أن أضحي المسلمون يسيطرون على طرق التجارة وكانت سفن عرب عمان وجنوبي شبه الجزيرة الذين أسلموا في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - تجوب المحيط الهندي وخلصانه والبحر الأحمر لتحمل البضائع من المراكز التجارية التي أنشأها التجار والمهاجرون العرب على امتداد الساحل الشرقي لإفريقيا وجنوبي آسيا وتوزيعها على أسواق العالم المعروف آنذاك وكان العرب سادة التجارة والملاحة في المحيط الهندي منذ القرن السادس حتى القرن السادس الميلادي وتقوم التجارة على وساطتهم (11) .

وكانت المستوطنات العربية التي أنشأها العرب على امتداد الساحل الشرقي لإفريقيا والجزر المواجهة له أسواقاً نافقة يغطاها الإفريقيون من الداخل بقصد التبادل التجاري ، كما كان يسكنها كثيرون منهم ومن الفرس أيضاً ، وقد امتدت قبل الإسلام حتى سفالة على حدود الموزمبيق وجزيرة مدغشقر - كما سبق ذكره - وكانت أساطيل المسلمين تتردد عليها بانتظام ، الأمر الذي جعل من هذه الأسواق والمستوطنات مراكز ومدناً عامرة تعج بالحياة والنشاط والتي أصبح معظمها - فيما بعد - عواصم لتلك الممالك والأمارات .

وقد دفع الإسلام بتلك الحركة التجارية دفعا قويا ، وحمل التاجر المسلم مع سلعته إسلامه الذي هذب خلقه ، وصقله على الصدق والأمانة

وعدم الغش ، مما جعله مثار إعجاب الناس في كل مكان ، كما أن طبيعة عمله جعلت اتصاله بجميع الناس مستمراً دون شك أو ارتياب . ولفت أنظار الناس إليه كثرة وضوئه وصلاته في أوقات منتظمة (12).

ومما يؤكد جهود التجار المسلمين في إضعاف وزعزعة استقرار الكيانات السياسية التي كانت قائمة آنذاك وبالتالي التمهيد لقيام ممالك إسلامية على أنقاضها ما ذكره ترمنجهام في كتابه الإسلام في أثيوبيا إذ يقول : (وقد استطاع التجار المسلمون بنشاطهم التجاري الجم أن يتحكموا في ميناء أو عدوليس (Adllis) وهو ثغر الحبشة فأدى ذلك إلى حرمان الحبشة منه وإلى قطع صلاتها بالعالم الخارجي إلا عن طريقهم مما يقلل أعداد التجار الأجانب من غير العرب بدولة أكسوم ، فضعف العنصر الإغريقي وزالت اللغة الإغريقية التي كانت لغة الثقافة بالعاصمة، وذبلت بزوالها الحضارة الهيلينية ، كما تركت دراسة الآداب القديمة وقلة بناء الكنائس ، وفي تلك الأثناء اقترن هذا التدهور بضعف السلطة المركزية ومنافسة الحكام المحليين بعضهم لبعض على حساب جيرانهم . هذا وقد ضعف أمر العقيدة النصرانية نفسها بارتداد كثيرين من سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية عن النصرانية (13).

ثانياً: الهجرات الإسلامية :

وسأتناول في هذا الجانب فقط نموذجين لجماعتين من الجماعات والقبائل التي هاجرت إلى منطقة شرق إفريقيا وكان لهما أثرهما السياسي فيما بعد، وسبب اختياري لهاتين الجماعتين دون غيرهما نظراً لحجم هذه الرحلات الكبير نسبياً وباعتبارها هجرات منظمة أحدثت تغييراً كبيراً في المنطقة ، حيث تسببت الرحلة الأولى في قيام سلطنة مقديشو بينما يرجع الفضل للجماعة

الثانية في قيام مملكة كلوه . وأولى هاتين الهجرتين :

هجرة بني الحارث:

لما اشتد الصراع بين فرقة القرامطة (14) ، والخلافة العباسية في مطلع القرن الرابع على مقربة من جزائر البحرين - إلى اضطهاد حاكم الأحساء ، هاجرت جماعة كبيرة منهم في ثلاث سفن تحت قيادة سبعة أخوة سنة (308 أو 312) هـ ، حيث هاجروا إلى شرق إفريقيا ونزلوا على ساحل الصومال ، وأسسوا مدينة مقديشو ، وتحالفوا مع الصوماليين أهل البلاد. فصارت مقديشو مملكة قوية ذات شوكة ونفوذ على عربان الساحل (15). وسيأتي تفصيل ذلك - إن شاء الله - وكان سكانها الأول شيعة زيدية رفضوا الخضوع لسلطان هؤلاء الوافدين من أهل السنة لاختلاف مذاهبهم ، ولكنهم عجزوا عن مقاومة خصومهم السنيين فتركوا لهم مقديشو وانسحبوا من الساحل إلى داخل البلاد ، واختلطوا بسكان البلاد الأصليين ، وتطبعوا بعبادتهم وصاهروهم وامتزجوا بهم ، وتكونت من هذا المزيج أمة مكونة من عرب وزنوج متوسطة بين الأمتين ، سواء من جهة العنصر والعقيدة ، أم من جهة البلاد التي احتلوها وكان لانسحابهم إلى الداخل أثر كبير في الإسلام بين أهل تلك المنطقة الذين اختلطوا بهم وصاهروهم (16).

هجرة الفرس الشيرازيين :

لم تتوقف هجرات المسلمين إلى شرقي أفريقيا على العنصر العربي وحده ، بل أسهمت فيها العناصر المسلمة الأخرى كالفرس والهنود بنصيب وافر.

وتذكر الأخبار هجرة علي بن حسن الشيرازي ، حاكم شيراز بفارس مع أهله وكثيرين من رعيته ، وذلك فراراً من طغرل بك السلجوقي وجيشه

الذي غزا شيراز 447هـ / 1055م ، وأن هجرتهم قد تمت في الفترة فيما بين التاريخ السابق وبين 493هـ / 1100م ، وهاجروا جميعاً في سبع سفن من جزيرة هرمز متجهين إلى شرقي إفريقيا . وتذكر الأخبار أنهم تفرقوا في الساحل وأنشأوا عدة مستوطنات في المناطق التي نزلوا فيها في عدد من الجزر والمدن (17).

ويذكر المغيري : أنه فيما ورد من أخبار مملكة كلوة الإسلامية أن حسن بن علي الشيرازي هاجر وأولاده من شيراز إلى إفريقيا في القرن الثالث الهجري ، ولكنه رجح أن قدوم الشيرازيين الذي حدث في القرن الثالث لم يكن هجرة بل كانوا قواداً لجنود بني أمية أو بني العباس ، إذ من المشهور أن ملك بني أمية وبني العباس أمتد إلى هذه المناطق الإفريقية وانتشر فيها الإسلام في أيامهم .أ.هـ (18).

وبعض الروايات تذكر أن هجرة الشيرازيين كانت سنة 364هـ / 975م (19). ولذلك يحدد جيان بناء مدينة كلوة بعام 365هـ ، ومقديشو سنة 295هـ (20). وهذا ما ذهب إليه ابن بطوطة في تاريخ تأسيس مدينة كلوة والمملكة بسنة 365هـ (21).

وكان حسن بن علي هذا عاقلاً وحكيماً هماماً ، ولذا أسس في مدة وجيزة دولة قوية ، ومملكة إسلامية زاهرة استمرت حتى مجيء البرتغاليين ، واكتسب مودة الأهالي ، واختلط المسلمون بالزنج وصاهروهم فأخذ الإسلام ينتشر بينهم (22). ويقول ترمنجهام : إنه نتيجة لانتشار حضارة البنادر الشيرازية في اتجاه الجنوب، حل الحكام المسلمون تدريجياً محل الزنج فانتشرت الحضارة الإسلامية مما ساعد على انتشار الإسلام بعد ذلك من المدن إلى القرى في الداخل (23).

ويمكن تلخيص أثر هذه الهجرات في قيام السلطنات والممالك الإسلامية بشرق أفريقيا في روح القيادة والزعامة التي كان يتمتع بها هؤلاء المهاجرون ، إضافةً إلى الوجود العربي والإسلامي الكبير الذي سبق إلى هذه المنطقة حيث سرعان ما استطاع هؤلاء الزعماء المهاجرون كسب الأنصار حولهم والزواج من بنات الزعماء المحليين مما مكنهم من الاستيلاء على السلطة وتأسيس تلك الإمارات الإسلامية.

أبرز الإمارات الإسلامية في شرق القارة:

نتيجة للوضع السابق الذي ذكرناه من اتصال عميق ومباشر وهجرات بين إفريقيا والجزيرة العربية وغيرها من البلاد شرق البحر الأحمر وبحر العرب، تكونت العديد من الممالك الإسلامية والأمارات التي كان لها أثرها البارز في حياة الأفارقة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وفيما يلي من هذا البحث نتناول أبرز هذه الممالك وجهودها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية ، وتأثيراتها في مجال التنمية الثقافية لدى الشعوب الإفريقية .

أمارة لامو 65هـ - 684م

أنشأها أزد عمان بزعامة سعيد وسليمان أبناء عبد الجلندي سنة 65هـ، حول منطقة أرخبيل لامو وبالتالي فهي أقدم الإمارات الإسلامية ظهوراً في المنطقة(24).

ويذكر الطبري حول هجرة آل الجلندي إلى شرقي إفريقيا: وذلك اثر الصراع الذي نشب بينهم وبين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إذ استطاعت جيوشه إلحاق الهزيمة بهما والقضاء على نفوذ أهل عمان ، وبانهزام أزد عمان بقيادة الأخوين سعيد وسليمان أبناء عباد الجلندي حملا

ذرايهما ومن معهما من قومهما، ولحقا ببلدٍ من بلدان الزنج (25).
وحول نهاية أمانة لامو وسلطنة باتا التي تليها لم تذكر المصادر
التاريخية نهايةً محددةً لهما إلا أنها ذكرت أنهما خضعتا لسلطنة كلوة بعد
توسعها .

جهودها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية :

يرجع الفضل لإمارة لامو في كونها أول من وطد لعرى الإسلام في
تلك المنطقة من أفريقيا وكما وردت أخبارها في المؤلفات القديمة ومنها ذلك
الكتاب الذي ألفه شيبو فرج بن حمد الباقر وعنوانه أخبار لامو، يعرض فيه
لتاريخ هذا البلد والهجرات الأولى التي وفدت إليه حيث ذكر أن تلك
الهجرات الأولى استقرت في مدينة لامو شمال ممبسا ، وكانت السبب في
ظهور أمانة إسلامية في ذلك الوقت، وبذلك كانت لامو أقدم الإمارات
العربية الإسلامية ظهوراً في ساحل شرق إفريقيا(26)0

وتبرز جهود أخرى لأمانة لامو في نشر الإسلام من خلال سياسة الحكام
المسلمين للرعية ، يقول النقيرة في كتابه انتشار الإسلام في شرق أفريقيا :
هاجرت كثيرٌ من الجماعات العربية المسلمة نتيجةً لاضطراب الأوضاع في
أرض الخلافة الإسلامية إلى منطقة شرق أفريقيا وكونوا إماراتٍ على
الساحل واستقروا فيها ويحكمها مسلمون منذ القرن الأول . ولقد نشأت هذه
الإمارات صغيرةً ثم كبرت بمضي الزمن ، وكانت الحكومات الإسلامية
المتربعة على عروشها تسوس رعيةً بعضها من المسلمين وبعضها الآخر من
غيرهم ، ومن هنا كان دورها في تحويل هؤلاء الرعايا إلى الإسلام . بل
وشمل كل من يتردد على تلك الممالك من غير المسلمين للتجار مع رعاياها
أو للعيش بينهم من القبائل المجاورة . أهـ (27).

أمارّة باتا أو (Pate)

إن الأصل في تأسيس أمارّة باتا يرجع إلى حكم الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذي شهد عهده تأسيس العرب لعدة مدن على الساحل الشرقي لإفريقيا، كماليندي، وزنجبار، وممباسا ، ولامو، وكلو، وباتا. وعندما سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية اعتمد الخليفة هارون الرشيد على ما كان للدولة الأموية من ممتلكات في شرق إفريقيا ، فعزم على تدعيمها ومن أجل ذلك شجع الكثير من العناصر وخاصة من الفرس على الإقامة في تلك الإمارات (28).

وكانت أمارّة باتا عظيمة، حيث كانت أولاً أمارّة أهلة بالسكان من قبائل أصيلة ، ثم أتت القبيلة النبهانية بقيادة سليمان بن مظفر النبهاني الذي تزوج من أميرة سواحيلية هي ابنة إسحاق حاكم باتا ، ثم ورث الملك وأصبح أميراً شرعياً، ثم نقل بلاطه إلى جزء كبير من شرقي إفريقيا ، وتأسست الأسرة النبهانية في مدينة باتا وقامت هذه الأمارّة الإسلامية في ظلهم بعمل بارز في تاريخ الإسلام في شرقي إفريقيا(29).

جهود باتا في نشر الإسلام :

ويظهر ذلك من خلال الحركة التجارية النشطة وما حدث فيها من تبادل ثقافي هام حيث نشطت الحركة التجارية في عهدهم نشاطاً عظيماً وتوافد على سلطنتهم التجار المسلمون من كل مكان. وسارت قوافل المسلمين التجارية من ممبسي مارة بموشي ونايروبي الحالية حتى وصلت إلى بحيرة فكتوريا وغربي إفريقيا، فقد ذكر ابن ماجد الملاح العربي المشهور - في القرن التاسع الهجري - إن طريق استجلاب الفلفل قديماً هو بلاد الكانم(30). ويذكر الدكتور جمال زكريا في بحوثه استقرار العرب في شرق

إفريقيا: أنه بالرغم مما تعرضت له الأسرة النبهانية من صراع حول السلطة إلا أنها استطاعت أن تحقق انتعاشاً كبيراً في شرقي أفريقيا مما كان له أثرٌ كبيرٌ في نشر الإسلام بين الإفريقيين(31).

سلطنة مقديشو 295هـ / 908م

أسسها سبعة إخوة هاجروا على رأس مجموعة من قبيلة الحارث التي كانت تقيم بالخليج العربي ، ونزلوا بساحل الصومال في أواخر القرن الثالث الهجري، وأنشأوا مدينة (مقديشو) 295هـ/908م وأصبحت مملكة قوية ذات شوكة ونفوذ حتى وصفها الرحالون بأنها مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة على السنة المسافرين كثيرة المساجد عظيمة العمران(32).

ولم تذكر كتب التاريخ نهايةً محددة لهذه السلطنة وإنما ذكرت بعض المصادر أنها استمرت حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (33). وتحالف بنو الحارث هؤلاء مع الصوماليين سكان البلاد الأصليين، وأنشأوا مدناً أخرى في هذه المنطقة مثل (برادة) وهي التي سماها الإدريسي (34) (بردات) و (مركة) التي تقع عند نهر (ويبي) و(قرفاوة) و(النجا) وغير ذلك.

وقد ظهرت مقديشو عليها جميعاً كمركز تجاري هام ينبض بالحياة ويعج بحركة التجار، فعمها الرخاء وسادها الأمن واتسع بها العمران ، وأضحت صاحبة السيادة على سكان الساحل جميعاً زهاء سبعين عاماً حتى أنشئت أماره كلوة في الجنوب فنافستها السيادة (35).

جهود سلطنة مقديشو في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية :

تظهر جهود سلطنة مقديشو في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية من خلال الوصف الذي ذكره المؤرخون لهذه السلطنة حيث يقول جيان : وفي عهد أسرة بني الحارث هؤلاء نمت ثروة مقديشو ، وازدهرت ازدهاراً منقطع النظير ، وأصبحت بمثابة عاصمة لجميع البلاد المجاورة التي سبق ذكرها. وقد كان السكان يردون على مقديشو في مواعيد معينة من السنة فيجتمعون في مسجدتها الكبير وقيمون به صلاة الجمعة مما كان يزيد من عظمة الإسلام في نفوس الإفريقيين (36).

وسارت سلطنة مقديشو في طريق النمو والازدهار، حتى زارها الرحالة الشهير ابن بطوطة سنة 731هـ، وجدها قد بلغت درجة عظيمة من الحضارة والرخاء ، وأنها قد حققت قدراً كبيراً من التقدم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن أهلها على خلق ودين، والمدينة متناهية في الكبر وأهلها تجار أقوياء(37).

وينقل لنا ابن بطوطة صورة أخرى عن الأثر العظيم لهذه السلطنة حيث أشاد ابن بطوطة بروعة نظامها في الحكم والإدارة وكيف أنها كانت تترسم هدي الإسلام وشريعته في أمور الدنيا والدين ، فقد كان يعاون سلطانها في الحكم القاضي وكاتب السر والوزراء والأمراء ، وهم أهل الشورى ، والفقهاء أهل الحل والعقد(38).

وقد خصص السلطان يوم السبت للنظر في مظالم الناس، بعد أن يدعوهم إلى طعامه ويقابل الشرفاء والوجهاء فيأكل معهم ، ثم يدخل إلى داره ، ويجلس القاضي والوزراء وكتاب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات: فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه

القاضي، وما كان سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى ، وهم الوزراء والأمراء ، وما كان مفتقراً إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيه ، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره ، وتلك عادتهم دائماً (39).

وسلطان مقديشو الذي قابله ابن بطوطة سنة 731هـ، هو أبو بكر بن الشيخ عمر، وهو في الأصل من البربرة ، وكلامه بالمقديشي ، ويعرف اللسان العربي ، وكان كريماً فاضلاً عادلاً وبلغ من الرخاء والترف اللذين كانت تتم بهما سلطنته أن خصص وزيراً يوكل بالضيوف وجهاز دوراً وجعلها لضيافة الوافدين: داراً لطلاب العلم والعلماء ، وأخرى للتجار وأبناء السبيل ، وداراً للطعام يطعم فيها رعيته كل يوم سبت - كما سبق ذكره (40).

وكانت تهتم بالعلم والثقافة الإسلامية تستقدم الأساتذة وتساعد طلاب العلم في كل مكان فخصصت داراً لإقامتهم والقيام بأمرهم ، وكانوا دائماً في صحبة أستاذهم المصري. وفوق ذلك كانت لها علاقات ثقافية واقتصادية ببلدان العالم الإسلامي الفسيح تستقدم العلماء من كل مكان منه وتوفد أبناءها إلى مراكز العلم فيه، فكان قاضيها ابن البرهان مصري الأصل ، وكانت تصدر الثياب المنسوبة إليها- والتي لا نظير لها - إلى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي وغير ذلك من محاصيلها ومنتجاتها، وتستورد ما هي في حاجة إليه من تلك البلدان (41).

وهذا الوصف يؤكد لنا مدى عظم هذه السلطنة والدرجة العالية من الرقي والازدهار التي بلغت مما جعل لها القدر المعلى في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في تلك الأصقاع .

سلطنة كلوة (سلطنة الزنج الإسلامية)

365هـ / 975م - 902هـ / 1499م

أسسها الفرس الشيرازيون في عام 365هـ / 975م ، بقيادة علي بن الحسن بن علي الشيرازي وبنيه، وعاصمتها كلوة التي جعلوا منها قاعدة ومركزاً كبيراً لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية بين القبائل الإفريقية في الساحل وداخله (42) وهذا هو الأرجح والذي أجمعت عليه المصادر العربية القديمة بخلاف المصادر التي تنسب تأسيس هذه السلطنة إلى جماعة هاجروا في عهد عبد الملك بن مروان (43).

وهذا ما رجحه ابن بطوطة حيث ذكر أنها أسست في منتصف القرن الرابع الهجري من قبل الفرس الزيدية . ومع هذا غلب عليها اسم سلطنة الزنج الإسلامية حيث يقول ابن بطوطة وأكثر أهلها الزنوج مستحكي السواد (44).

وكان أبناء علي بن الحسن الستة قد نزلوا على امتداد الساحل الشرقي لإفريقية والجزر المواجهة له، كل بموضع معين ، واعتبروا بسيادة أبيهم عليهم ولما شعر علي بن الحسن بقوته وعزة جانبه أخذ يمد سلطانه على الأمم المجاورة ، فأرسل أحد أبنائه إلى جزيرة أنجوان من جزر القمر، وأرسل آخر إلى جزيرة منفية ، ولقب هذا الابن الشاب بالسلطان ، واستطاع على هذا أن يؤسس مملكة قوية سيطرت على جزء كبير جداً من ساحل شرقي إفريقيا والجزر المواجهة ، امتد قبل وفاته من سفالة جنوباً إلى منبسي شمالاً ، ساعد على انتشار الإسلام بتلك الأنحاء. واستمر حكمه أربعين عاماً (45).

وبسطت دولة كلوة سيطرتها على مناجم الذهب والحديد في روديسيا

الحالية منذ عهد ثاني سلاطينها ، وبلغت في عهده ذروة قوتها، فأخذت تمتد نفوذها على المدن المجاورة وأخضعت لحكمها الجزر القريبة مثل بمبة وزنجبار ومافية والبعيدة مثل جزر القمر ، وكان حكام المدن والسلطات والأمارات العربية الممتدة على طول الساحل من مقديشو شمالاً إلى سفالة وموزمبيق جنوباً يعترفون بسلطان كلوة على أنه أعظم مقاماً ورفعةً(46).

جهود كلوة في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية :

يقول صاحب جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار : وسارت سلطنة كلوة في طريقها نحو الازدهار ، ونمت ثروتها وحققت شهرةً بحريةً وتجاريةً منقطعة النظير في القرن (السادس الهجري) وباتت لها صلات اقتصادية وثقافية بدول العالم الإسلامي الفسيح فكان أسطول كلوة يحمل ذهب سفالة وغيره من منتجات الساحل ويوزعها على أسواق العالم الإسلامي . كما كانت دولة كلوة توفد أبناءها لتلقي العلم في مساجد العالم الإسلامي ومعاهده في الحرمين ودمشق والقاهرة وغيرها (47) .

وبنيت المساجد في كل مكان ، واحد في كيزاماكي في زنجبار ، سنة 500هـ/1107م . ومسجد عظيم في كلوة على الطراز القديم لا تزال آثاره باقيةً حتى اليوم . وهناك مساجد وبقايا دور جميلة تشهد برقي الحضارة الإسلامية التي وفدت على الساحل والتي حملت مملكة الزنج الإسلامية لواءها . حيث تذكر الأخبار عن مدينة كلوة عاصمة المملكة في أيام مجدها وازدهارها كان بها (360) مسجداً (48) .

واشتغل المسلمون هناك بالتجارة وأثروا منها ثراءً واسعاً وزاد اختلاطهم بالإفريقيين وتزاوجهم معهم وكانت نتيجة ذلك الاختلاط بروز الشعب السواحلي بلغته ومقوماته ، وعلموا قبائل الداخل التي احتكت بهم

حياة الأمن والاستقرار وحولهم إلى الإسلام (49) .

ووصف ابن بطوطة مملكة كلوة مظهراً عظمتها قائلاً: (وركبنا البحر إلى مدينة كلوا وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزوج المستحكي السواد ولهم شرطات في وجوهم ، ومدينة كلوة من أشهر المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة. وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب)(50)

والمأمل في عبارات ابن بطوطة هذه التي وصف بها عاصمة سلطنة كلوة يجدها تحفل بالعديد من المعاني والمدلولات الثقافية ، فعلى الرغم من أن مؤسسي سلطنة (كلوة) هم الشيعة الشيرازيون فإن ابن بطوطة يذكر أن السكان شافعية المذهب . ويدل ذلك على الحرية الفكرية والدينية التي كانت تحظى بها كلوة ، فالناس بها ليسوا دائماً على دين ملوكهم وهذا أمرٌ اشتهرت به مدن الساحل ، فهذه زنجبار لإباضية عمان اليعربيين والبوسعيديين طوال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ولكنها حفلت بالعديد من المذاهب الإسلامية حيث كان غالب أهلها من أهل السنة بجانب الطرق الصوفية وغير ذلك . وهذا من جانب آخر يدل على سماحة الحكام في هذه الأجزاء من شرق إفريقيا.

ومما يستحق الاهتمام من مذكرات ابن بطوطة عن سكان كلوة ما قاله : من أن أغلب سكانها من الزوج ذوى الشرطات على وجوهم ، ويلاحظ الآن اختفاء هذه الشرطات مما يدل على الأثر الإسلامي الذي صبغت به هذه المملكة سكان الساحل الذي أدى إلى نوع من التجانس العرقي وأدى هذا بدوره إلى اندثار عادات وشمية كانت موجودة ، بالإضافة إلى

تشكيل تركيبة سكانية جديدة اعتنقت الإسلام وحسن تمسكها به لدرجة أصبح معها الوصف الغالب على أهلها هو التقوى والصلاح. وقد انعكس أثر ذلك على نظام الحكم عندهم والذي يتكون من السلطان ، والوزير، والقاضي. وكما هو واضح فإن منصب الوزير مقتبس من الدولة العباسية ، وهنالك مناصب إسلامية أخرى صميمة مثل المحتسب الذي تقع مهمة مراقبة الموازين والمكايل والأسواق والقيام بمعاقبة المخالفين. كما ينعكس نظام الحكم الإسلامي في أسلمة النظام الاقتصادي التي كانت سائدة.

يقول ابن بطوط: (51)

((وكان سلطانها في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن ويكنى أيضاً أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه، وكان كثير الغزو إلى أرض الزوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها فيصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى . ويجعل نصيب ذوى القربة في خزانة لوحده ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة ، وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف)).

وتعكس النقود النحاسية التي وجدت مصكوكاً على جانبيها عبارات في عهد ملوك مملكة كلوة الروح الإسلامية العالية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع . فقد صكت على إحدى القطع النقدية التي يرجع عهدها إلى ذلك التاريخ عبارة إسلامية واضحة مثل (وتعاملوا بالإحسان) وعلى الجانب الآخر (نقد سليمان بن داود).

وبالمثل تتجلى مظاهر أسلمة الحياة في سلطنة الزنج في كلوة في

نظام الجيش عندهم فالجيش شقان، شق جهادي متطوع وشق نظامي ، ويتكون الشق الجهادي من العرب والفرس الذين يعتبرون من أهل الحمية للدين والحكم . أما الشق النظامي فيتكون من الزنوج المسلمين بالإضافة إلى الشيرازيين ، ويتقاضى الآخرون رواتب ، بينما يعتمد الشق الأول على (الجهاديين) على الفياء والغنائم(52).

وقد ساعدت هذه القوة السياسية والعسكرية لدولة الزنج العرب على التوغل في داخل القارة للحصول على ثروتها ، وللاتجار مع أهلها ، ونشر الإسلام بينهم، حتى أضحى لهم قلوب الزنج رعب عظيم ومهابة ، كما ذكر ذلك عدد من المؤرخين منهم الإدريسي ، والسيرافي. وجانب قوافلهم التجارية المناطق الداخلية، وسادت من دار السلام إلى أوجيجي على بحيرة تنجانيقا مارة بظابورة . كما اتخذ التجار مستوطنات وأسواقاً لهم بالداخل ، واختلطوا بالإفريقيين ونشروا الإسلام بينهم(53).

وقد زار ابن بطوطة مدينة مُمبَاسَا * التي شملها حكم سلطنة كلوة سنة 1300م، ودهش مما كانت عليه هذه المدن من تنظيم ومن حالة الرخاء السائدة فيها ، وقد وصف شوارعها المنظمة، ومنازل العرب المبنية من الحجارة ذات النوافذ الخشبية المزينة بالنقوش المحفورة ، كما كانت للمنازل حدائق غناء ، ويذكر أنه شاهد في كل مدينة زارها من مدن الساحل الإفريقي الشرقي مسجداً مزيناً بنقوش(54) .

وكذلك نوه الرحالة الأوروبيون الذين زاروا هذه الإمارات بما كانت عليه من حضارة ورقية ، فقد لمسوا فيها كما يقول أحدهم - أنه وجد مجتمعاً متحضراً لا يقل عن المجتمع الأوروبي في ذلك الوقت. وشهد الشهادة نفسها دوراتي بربوسا (Duarte BarBosa) وهو رحالة زار ممباسا ومالندي

وبمبا وزنجبار، وتحدث البرتغاليون الذين استقروا بعد ذلك في هذه الجهات عن مظاهر هذه الحضارة الزاهرة. ويعلق كوبلاند Coupland على هذا بقوله: إننا يجب ألا ندهش لما يذكره هؤلاء الرحالة عن مظاهر الحضارة التي نقلها العرب إلى شرق إفريقيا فإن العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة، وحتى القرن الثالث عشر الميلادي تفوق تلك التي في اكسفورد أو التي في أي مدينة مسيحية أخرى (55).

وينقل المسيو جيان عن مؤرخي البرتغال الذين زاروا مدن مالندي ، وزنجبار ، وكلوة ، وبمبة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي قولهم : ((كان العرب المسلمون وأحفادهم حيثما استقروا يتركون من دلائل الثروة والرفاهية والنعيم أثراً لا يمحي ، وكان هذا شأنهم في المدن والجزر التي أقاموا فيها)).

وتعاقب على حكم كلوة قبل مجيء البرتغاليين ثلاثون سلطاناً كان آخرهم فضيل بن سليمان الذي تولى الحكم سنة 901هـ / 1498م (56) وبالرغم من أن الفترة الأخيرة من حياة سلطنة كلوة اتسمت بالصراع على العرش ، واستئثار الأمير أو الوزير بالسلطة ، إلا أن ذلك لم يؤثر على الحياة المدنية حيث شاع الرخاء المادي أرجاء السلطنة وضربت في ميادين التقدم الحضاري بنصيب كبير يدل على ذلك ما وجدته البرتغاليون عندما قدموا إليها مما أدهشهم من تجارة مزدهرة ورخاء مادي منقطع النظير ينعم به الأهليون في حياة مترفة ، ومبانٍ مشيدة بالحجارة والجص بلغت درجة فائقة في الإبداع والتنسيق والإتقان ، وأساطيل تجارية ضخمة تجوب المحيط الهندي والبحار تطن كخلايا نحل ، وسكان على درجة عالية من حسن الخلق ورقة الطباع والمدنية .

وهذا يؤكد لنا مدى انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية الراقية وتغلغلها في تلك البلاد بفضل الله ثم بفضل جهود هذه السلطنة الإسلامية العريقة حتى تمت أسلمة جميع نواحي الحياة في البلاد الأمر الذي عمق من انتشار الإسلام والدعوة الإسلامية في تلك البقاع .

مملكة شوة الإسلامية :

(283هـ/896م - 688هـ/1289م)

وهي أقدم مملكة قامت بالحبشة ، أسسها مهاجرون من قبيلة بني مخزوم العربية القرشية ، منذ سنة 283هـ/896م ، في منطقة من أمنع المعازل فوق مرتفعات الهضبة الحبشية موقع مدينة أديس أبابا الحالية.

ويرى الدكتور حسن أحمد محمود : أن بني مخزوم هؤلاء كانوا من المهاجرين العرب الأوائل الذين نفذوا إلى هذه الجهات وليس بعيداً أن يكون قد نزلوا في أول الأمر في ضيافة أمارة محلية ثم اختلطوا بالأمراء عن طريق المصاهرة حتى آل إليهم الملك آخر الأمر ، حيث عملت على توطيد العقيدة الإسلامية في شرق إفريقيا .

ويبدو أن هؤلاء المهاجرين عملوا بالتجارة فأثروا منها ثراء عظيماً . ولما نما شأنهم تصاهروا مع الأسرة الحاكمة ، فآل الحكم إليهم ، أو أن ما وصلوا إليه من ثروة ونفوذ لدى الأسرة المتربعة على عرش الحبشة دفعها إلى إسناد حكم مملكة شوة الإسلامية إلى أسرة بني مخزوم القرشية . وأياً كانت العوامل التي ساعدت تلك الأسرة المسلمة على اعتلاء عرش مملكة شوة الإسلامية فقد استمر حكمها قرابة أربعة قرون من الزمان تمتعت خلالها المملكة بالأمن والاستقرار ، وظلت في عزلة عن العالم ، لما تيسر لها من عزة ورخاء ، لاكتفائها الذاتي واشتغال رعاياها بالزراعة والرعي مما يتيح

حياة الاستقرار ، ولقوة الأسرة الحاكمة وما تتمتع به من ثروة ونفوذ .
وظل أمر تلك المملكة الإسلامية مجهولاً إلى أن اكتشف المستشرق الإيطالي الدكتور روسيني شيروولي - وثيقة عربية سنة 1355هـ ، تعرض للأحداث التي مرت بها تلك المملكة في أواخر عهدها من سنة 628هـ إلى سنة 688هـ ، حين دب فيها الضعف ، ومزقت أوصالها المنازعات الداخلية على السلطة ، والخارجية مع الإمارات الإسلامية المجاورة التي تبغي التخلص من سيطرة الحروب عليها .

كيف نشرت شوا الإسلام وحضارته :

يذكر المؤرخون أن معظم حكومات هذه السلطنات والممالك حكومات مسلمة كانت تحكم طبقاً لشريعة الإسلام وكان معظم حكامها يترسمون هدي الإسلام ، ويسترشدون بتعاليمه ، وكان معظم أفراد رعيتهم المسلمين صورةً مجسدةً للمجتمع المسلم .

وإذا كان الراعي والرعية تتحرى الإسلام في سلوكها ، وتصطبغ حياتها به في الحكم والاقتصاد والاجتماع ، وتتخذ شريعته دستوراً لحياتها فلا شك أن ذلك ينعكس على غير المسلمين سواء الرعايا أو من يترددون على المسلمين ويتعاملون معهم.

وقد كانت تلك المملكة الإسلامية مركزاً لنشر الإسلام وثقافته في تلك المنطقة وما جاورها ، وبذل سلاطينها جهوداً كبيرة لنشر الإسلام صوب الداخل في بلاد أرجبة (57) (Argbba) وأضافوها إلى أملاكهم سنة 1118م ، كما تشير تلك الوثيقة السالفة ومن شوة انتشر الإسلام فوق الهضبة .

مملكة أوفات (650هـ/1251م - 950هـ/1451م) أو ((أوفات))

وهي أوسع الممالك التي قامت في الحبشة ، إذ يقول في ذلك المقريري : ((وطول مملكتها خمسة عشر يوماً في عرض عشرين يوماً ، كلها عامرة بالقرى المتصلة والأسعار بها رخيصة ، ملك أوفات يحكم على الزيلع وغالب أهلها شافعية المذهب ويوجد فيهم بعض الأحناف ويتكلمون باللغة العربية ، وكذلك الحبشة)) (58).

وقد أسس مملكة أوفات الإسلامية مهاجرون من قريش ، قيل من بني عبد الدار ، وقيل من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب قدم أسلافهم من الحجاز واستوطنوا مدينة أوفات التي تقع غربي زيلع - وهي من أكبر مدن الحبشة - واشتهر قومٌ منهم بالصلاح والتقوى ، إلى أن كان منهم عمر الملقب بـ ((ولشمع)) أحد تجار أوفات الأقوياء فولاه ((الخطي)) (59) مدينة أوفات وأعمالها ، لما نما شأنه ، فحكم بها مدةً طويلةً ، وشكرت سيرته ، وصارت له بها شوكة قوية وذلك منذ منتصف القرن السابع الهجري (60). وأول من أشار إلى تلك المملكة من المؤرخين العرب هو ابن سعيد ، إذ قال : ((ومن زيلع إليها ((وفات)) نحو عشرين مرحلة ، وعمار وفات متفرقة ، دار الملك على تل ، والقلعة على تل ، وهي بعيدة عن البحر وهي في جهة الغرب من زيلع... وأهلها مسلمون)) (61).

جهود مملكة وفات في نشر الإسلام وحضارته :

انتشر الإسلام في مملكة وفات منذ القرن الأول الهجري ، إذ نزل فيها المسلمون أولاً للتجارة والإقامة ومنها انتشر الإسلام في شوة المحاذية لها من جهة الغرب . وقد امتدت هذه المملكة فيما بعد حيث تبدأ من ساحل البحر الأحمر إلى قلب الحبشة شاملة إقليم شوة الشرقي ، كما كانت تتحكم

في الطريق التجاري الذي يربط داخل الحبشة بميناء زيلع ، وتسيطر على
تجارة الحبشة(62) .

وكانت مملكة وفات الإسلامية قد خضعت لمملكة داموت الوثنية على
مطلع تكوينها على عهد عمر ولشمع ، ثم خضعت لمملكة الحبشة تحت حكم
السليمانيين بعد أن قضت على مملكة دانوت الوثنية . ولكن مملكة وفات لم
تلبث أن استعادت سيادتها بل واستقلت عن الحبشة فيما بعد وتزعمت حركة
الجهاد الإسلامي ضد الحبشة المسيحية (63) .

وكان سلطان (وفات) أقوى سلاطين الممالك الإسلامية بالحبشة ، بل
كلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون إليه (64).

وتمكن المسلمون هناك بما لديهم من مالٍ و ثراءٍ وسفنٍ من إيفاد
أبنائهم إلى مراكز الحكم ومساجده في مصر والشام والحجاز واليمن ،
يرتشفون من معينٍ لا ينضب ، ويتزودون بثقافةٍ إسلاميةٍ متعددة الجوانب .
فعاد بعضهم وقام بعمل الداعية ، وتولي آخرون القضاء ، وقام بعضهم
بالزعامة الدينية والسياسية هناك ، وأسهم هؤلاء وأولئك في نشر الإسلام
وثقافته ، ففتحوا الكتابات لتحفيظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ الدين (65).

ولما تولى ملك الحبشة الحطي (سيف أرعد) 745-773هـ ، حارب
المسلمين حرباً شديدة فتصدي له من ملوك وفات المسلمين الملك حق الدين ،
ومازال حق الدين يحارب الحطي سيف أرعد حتى مات الأخير سنة 774هـ
، وتولي ابنه داود فاستمر حق الدين على محاربتة والله يؤيده بنصره ،
فكانت بينه وبين أمهرة الحبشة الكفرة بضعة وعشرون وقعة في مدة تسع
سنين ، استشهد في آخرها سنة 776هـ/1375م بأرض شوة (66). وسبب
ذلك أن الحطي سيف أرعد ثم ابنه من بعده كان قد انتهج سياسةً عدوانيةً ضد

مسلمي الحبشة ، فقصي بإعدام من يتمنع منهم عن الدخول في النصرانية ، جرياً على سياسة ملوك الأحباش النصارى الذين تأثروا بالحروب الصليبية في الشرق الأوسط الإسلامي(67) .

وبعد تلك الفترة كانت مملكة وفات تضعف فتخضع لسلطان ملك الحبشة النصراني وتدفع له إتاوة ، وتقوى أحياناً فتطرح تلك التبعية وتتخلل من قيودها وتستقل عن دفع الإتاوة له (68).

ويذكر المقرئزي : أن سلاطينها تسماوا بـ ((أمراء عدل)) ثم بـ ((أئمة هرر - المدينة المشهورة اليوم في أثيوبيا)) واشتهر منهم سعد الدين أبو البركات محمد بن صبر الدين وقد اتبع سياسة أخيه حق الدين في جهاد أمهرة الكفرة ولكن بتؤدة وسياسة حسنة فكثرت عساكره وتعددت غاراته واتسعت مملكته . وقد استشهد في جزيرة زيلع سنة 805هـ/1403م بعد حكم دام نحواً من ثلاثين سنة ، كان رجلاً صالحاً (69).

ومن ملوكها المشهورين الذين أسهموا في نشر الإسلام ، الملك جمال الدين محمد بن سعيد الدين ، وكان خير ملوك زمانه ديناً ومعرفة وقوة وشجاعة ومهابة وجهاداً في أعداء الله تعالى ، ومازال مؤيداً من الله تعالى منصوراً على أعدائه حتى ختم الله له بالحسنى وكتب له الشهادة . وكان يصحب الفقهاء وأهل الفقر من الصالحين وينشر العدل في أعماله حتى في أهله وولده (70) واسلم على يده عالم من أمهرة لا يحصى(71).

وأشهر هؤلاء الملوك المسلمين - في الحبشة - جميعاً الأمام أحمد بن إبراهيم القرنين (932-949هـ/1526-1543م) ، الذي أعاد لحكام مسلمي الحبشة سيرة حكومة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأدخل الأحباش النصارى والوثنيين جميعاً في الإسلام حتى لم يبق

على نصرانيته إلا قرابة عشرهم (72) .

وبالرغم من انشغاله في الجهاد الإسلامي ورد عدوان الحبشة النصرانية وحليفها البرتغال على مسلمي الحبشة إلا أنه لم يدخر وسعاً في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، والعمل على توفير حياة حرة كريمة لرعيته مما جعل حكمه فريداً بين حكم الملوك السابقين ، وجعله أشهرهم وأقوامهم وأعدلهم على الإطلاق وقد وجد ممالك المسلمين جميعاً تحت سلطانه ، بل تربع على عرش الحبشة كلها . وقهر الأحباش الذين كان المسلمون قبله يؤدون لهم الإتاوة وأدخلهم تحت سلطانه ، وأدخلهم في الإسلام . ولو لا تدخل البرتغاليين ومساعدتهم ملك الحبشة الطريد وفلول جيشه المهزوم - وقتلهم الإمام أحمد - لظلت الحبشة مسلمة جميعها إلى يومنا هذا .

ممالك الطراز الإسلامي *

وقد ذكرها ابن العمري فيما بين سني (1343-1348م) وذكرها أيضاً المقرئ في كتابه ((الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام)).

وهي سبع ممالك أكبرها وأعظمها مملكة ((وفات)) التي سبق الحديث عنها بالتفصيل ، ثم تأتي مملكة الزيلع ، ومملكة دوارو ، ومملكة أرابيني ، ومملكة هدية ، ومملكة شرفا ، وبالي ودارة ، وقد ذكر ابن العمري فيما نقله عنه القلقشندي : أن لمسلمي الإمارات الجوامع والمساجد التي تقام بها الخطب والجمع والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين (73).

ويبدو أنها كانت قبل القرن الثامن الهجري ، تحت حكم ملوك شوة ثم وفات ولكنها تمزقت في وحدات صغيرة لما حل بها في القرن الثامن

الهجري علي أيدي الأحباش النصارى ، ثم توحدت بعد ذلك على يد الإمام أحمد القرين (912-1950م).

جهودها في نشر الإسلام وحضارته :

تظهر جهود ممالك الطراز الإسلامي في نشر الإسلام وحضارته من خلال بناء المساجد والجوامع التي تقام فيها الخطب والجمع والجماعات كما في قول ابن العمري المتقدم : ((أن لمسلمي الإمارات والممالك الجوامع والمساجد التي تقام بها الخطب والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين)) . كما عنيّت هذه الممالك بإنشاء المدارس الدينية لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم أصول الدين والشريعة الإسلامية واللغة العربية ، وكان بها القضاة والفقهاء والعلماء الذين كانوا يرحلون إليها من سائر أنحاء العالم الإسلامي.

وبعد ... فهذه لمحة موجزة عن دور الممالك والإمارات التي أقامها المسلمون في شرقي إفريقيا في نشر الإسلام وحضارته والدعوة إليه ، وهو دورٌ مشابه لما قامت به رصيفاتها من الممالك والدول الإسلامية في غرب القارة وهكذا الإسلام أينما حل فهو دين الهداية والرحمة ودين العلم والمعرفة والراقي .

وقد بقيت آثار هذه الممالك وأعمالها شاهدة عليها رغم محاولة المستعمر طمس هذا الدور الرائد وإزالته ، ولكن الله غالب على أمره . وهو دور نتمنى له أن يعود كما كان أو أفضل وليس ذلك على الله بعزيز .

الخاتمة وتشتمل على :

أولاً : النتائج :

سما سبق عرضه من جهود ونشاط لهذه الممالك والإمارات الإسلامية في منطقة شرق إفريقيا في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في تلك النواحي

يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية :

1- أن الصلات والعلاقات بين شرق أفريقيا والجزيرة العربية قديمة وضاربة الجذور إذ تعود إلى مئات السنين قبل الإسلام ولما جاء الإسلام عزز من هذه العلاقات .

2- أن لهذه السلطنات والممالك جهود كبيرة في نشر الإسلام وحضارته الراقية في تلك البقاع وذلك من خلال إنشاء المدارس والمساجد وإتباع النظم الإسلامية ، وهذا ما شهد الرخالة والمؤرخون الذين كتبوا عن تلك الممالك أمثال المقرئ والمقرئ وابن بطوطة وغيرهم .

3- ازدهار الحياة ورفقها في جميع المجالات حيث نشأت صناعة الأقمشة وزراعة الفواكه التي أدخلها العرب المسلمون بالإضافة إلى زراعة البلح والبقول والأرز وتربية المواشي .

4- ونتيجة لإسهامات هذه الممالك والدول في نشر الإسلام وحضارته في تلك البقاع فقد تغير إنسان تلك المنطقة جذرياً في جميع مناحي حياته. ففي الجانب الاعتقادي آمن الناس بالله رباً وبمحمد نبياً وبالإسلام ديناً، وتركوا ما كانوا عليه من الاعتقاد في الجن والسحر والكهنة والشعوذة وغيرها من مظاهر الوثنية وعدم الاعتقاد في الحياة الأخروية والأفكار الخاطئة عن الموت ونحو ذلك. وفي الجانب الاجتماعي، فقد أزال الإسلام الفوارق الجنسية الإثنية والطبقية بين أفراد المجتمع الواحد، إذ آخى الإسلام بين مسلمي شرق إفريقيا من فرس وهنود وعرب وأفريقيين وتزوجوا فيما بينهم فامتزجت تلك العناصر جميعاً وكونت عنصراً واحداً يدين بالإسلام

. كما غير الإسلام عاداتهم في الزواج ونظام الأسرة فحصر عدد الزوجات في أربع ورفع مكانة المرأة وأحاط الأسرة بسياج من الحصانة والعفة. أما في الجانب الاقتصادي فقد ازدهرت التجارة والزراعة - كما مر - وساد الرخاء وانعكس ذلك على السكان المحليين الذين وجدوا الطمأنينة والاطمئنان في ظل هذه الدول والممالك فدخلوا في دين الله أفواجا.

ثانياً : التوصيات :

- أما في جانب التوصيات فيوصي الباحث بالتالي :
- 1- توثيق الصلات الإسلامية والعربية مع هذا الجزء من أفريقيا على وجه الخصوص باعتباره أول منطقة من أفريقيا تطأها أقدام العرب والمسلمين استكمالاً لتلك الصلات.
 - 2- تعزيز التعاون بكافة أشكاله بين الدول الإسلامية والعربية ودول منطقة شرق أفريقيا .
 - 3- الاهتمام بالمزيد من الدراسات لتاريخ تلك المنطقة ودياناتها وشعوبها .
 - 4- تكثيف العمل الإسلامي والدعوى من قبل المنظمات والهيئات العاملة في حقل الدعوة الإسلامية بالمنطقة .

الهوامش

- (1) أنظر: الرحيق المختوم ص 30 لصفي الرحمن المباركفوري طبع دار الوفاء.
- (2) الإسلام في شرق إفريقيا ، ص9 ، سبنسر ترمنجهام ، ترجمة محمد عاطف النواوي ، ط . مكتبة الانجلو المصرية القاهرة 1973م .
- (3) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية ، ص26 تأليف المسيو جيان ، ترجمة يوسف كمال ط. 1927م .
- (4) أنظر : مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ، أماكن متفرقة .
- (5) انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له ، ص25 محمد عبد الله النقيرة ، نشر دار المريخ - الرياض
- (6) المصدر نفسه ، ص27.
- (7) المصدر نفسه ، ص30.
- (8) المصدر نفسه ، ص31.
- (9) أنظر : إفريقيا تحت أضواء جديدة ، ص244-245 ، بازل دافرسن ط. بيروت 1961م .
- (10) أنظر : السابق ، ص63 .
- (11) المرجع السابق ، ص63 .
- (12) أنظر : الدعوة إلى الإسلام ، ص391-386 ، بحث في انتشار العقيدة الإسلامية ، لـ توماس . و. أرنولد . ترجمة مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1973م .
- (13) Trimingham , Islam in Ethiopia , PP . 19-47-48
- (14) القرامطة قوم من الخوارج خرجوا وقطعوا الدرب على الحاج وتظاهروا بمحاربة الفساد والظلم وادعوا الانتساب إلى العلويين وعاشوا في الأرض فسادا، واقتطعوا جزءاً كبيراً من أرض الخلافة أنظر البداية والنهاية لابن كثير ج11 ، ص61 ، رضا كحالة العالم الإسلامي ج2 ، ص67.
- (15) أنظر : دولة بورسعيد في عمان وشرق إفريقيا ، ص15-16 ، جمال

- زكريا قاسم .
- أنظر أيضاً : Copland : East Africa and its Invaders , P 22 .
- (16) سبنسر ترمنجهام ، ص 37 ، مرجع سابق .
- (17) المصدر نفسه ، ص 42 .
- أنظر : انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ، ص 9 ، مرجع سابق النقيرة .
- (18) جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار ، ص 58 ، 60 ، سعيد بن علي المغيرة .
- تحقيق عبد المنعم عامر . طبع عيسى بابي الحلبي .
- (19) النقيرة ص 90 مرجع سابق .
- (20) شارل جين ، وثائق تاريخية وجغرافية عن إفريقيا ص 86 .
- (21) أنظر : ابن بطوطة ، ص 121 ، مرجع سابق .
- (22) انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ، ص 91 ، النقيرة ، مرجع سابق .
- (23) في كتابه الإسلام في شرق إفريقيا ، ص 38 ، مرجع سابق .
- (24) مجلة دراسات إفريقيا ، ص 83 ، العدد (2) شعبان 1986/146 م صادر عن المركز الإسلامي الإفريقي الخرطوم .
- (25) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك مج 6/ ص 170-172 ، تحقيق الدكتور محمد الفضل إبراهيم .
- (26) الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا ، ص 397 - 398 حسن أحمد محمود ، طبع دار الفكر ، 1986م .
- (27) النقيرة ، ص 184 .
- (28) Warner : Swahili , History of Pate , London, 1913
- (29) النقيرة ، ص 184 ، مرجع سابق .
- (30) حسن أحمد محمود الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص 399 طبع دار الفكر 1986م .
- (31) النقيرة ، ص 187 ، مرجع سابق .
- (32) نشرت في حواشي آداب عين شمس ، مج 10 ص 312-313 .
- (33) المسيو شارل جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية ، ص 184 ، مرجع سابق .

- (34) في كتابه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نقلًا عن النقيرة ، ص182 مرجع سابق .
- (35) جيان : المرجع السابق ص85 ، حسن محمود ، ص391، مرجع سابق .
- (36) المصدر نفسه ، ص185-187 .
- (37) الرحلة : لابن بطوطة ، ص115، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، المجلد الثاني 147/1997م.
- (38) الرحلة ، ص120 ، مرجع سابق .
- (39) المصدر نفسه ، ص116 .
- (40) المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 121.
- (41) المصدر نفسه ، ص116 .
- (42) النقيرة ، ص189 مرجع سابق .
- (43) محي الدين الزنجباري ، السلوة في أخبار كلوة ، منشور باللغة الانجليزية نشره A.strong P. 4110-1890 .
- (44) ابن بطوطة ، ج2 ، ص 122.
- (45) النقيرة المصدر السابق ، ص190 .
- (46) ترمجهام : الإسلام في شرق إفريقيا ، ص12 . النسخة الإنجليزية نقلًا عن النقيرة ، مرجع سابق ، ص191.
- (47) جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار ، ص70 ، مرجع سابق .
- (48) مرجع سابق PP.28-29 Copland : East Africa and its Invaders
- (49) رحلة ابن بطوطة : تحفة النظار ج2 ، ص121 ، مرجع سابق .
- وهي مدينة عريقة في ساحل كينيا حالياً وقد ضبطها ابن بطوطة بـ(منبُسي)
- أنظر رحلة ابن بطوطة ج2 ، ص120 ، مرجع سابق .
- (50) الرحلة لابن بطوطة ج2 ، ص122 ، مرجع سابق .
- (51) المصدر نفسه .
- (52) صبح الأعشى ، ج5 ص324 ، مرجع سابق .
- (53) المصدر نفسه ، ص18 .

- (53) المصدر نفسه ، ص18 .
- (54) انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا ، ص192 النقيرة مرجع سابق .
- (55) المصدر نفسه ، ص195 .
- (56) المصدر نفسه ، ص 124
- (57) أنظر جيان : وثائق تاريخية وجغرافية ، ص318 ، مرجع سابق .
- (58) الإمام بأخيار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص6 ، 7 ، أحمد بن على المقرئ ي ط. مطبعة التأليف بمصر 1985م.
- (59) الحطي: بلغة الحبشة معناه السلطان وهو ملهم الأكبر الحاكم على جميع أقطارهم .
- (60) الإمام للمقرئ ي ، ص9 ، مرجع سابق .
- (61) النقيرة : انتشار الإسلام شرقي أفريقيا ، ص198 ، مرجع سابق .
- (62) صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 325.
- (63) ترمنجهام : الإسلام في أثيوبيا ، ص58 ، لندن 1952 ، مرجع سابق.
- (64) الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا ، ص399 مرجع سابق .
- (65) المرجع السابق ، ص399 .
- (66) النقيرة ، ص202 ، مرجع سابق .
- (67) صبح الأعشى ، ج5 ص332.
- (68) المصدر نفسه - ج5 ، ص226.
- (69) الإمام : للمقرئ ي ، ص9 . مرجع سابق .
- (70) المصدر نفسه ، ص10 ، 11 .
- (71) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص136 - 135 . مرجع سابق .
- (72) الإسلام في أثيوبيا : ترمنجهام ، ص62-65 .
- * ويعبر عنها بالطراز الإسلامي لأنها على جانب البحر كالطراز له . صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 322.
- (73) الإمام للمقرئ ي ، ص11-13 ، مرجع سابق .
- والقلقشندي ، ج 5 ، ص 322.

المصادر والمراجع

- 1/ إفريقيا تحت أضواء جديدة ، بأزل دافرسن ط. بيروت 1961م .
- 2/ الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا حسن أحمد محمود ، طبع دار الفكر ، 1986م.
- 3/ الإسلام في شرق إفريقيا ، سبنسر ترمنجهام ، ترجمة محمد عاطف النواوي ، ط . مكتبة الانجلو المصرية القاهرة 1973م .
- 4/ الإسلام في أثيوبيا ، ترمنجهام ، لندن 1952م
- 5/ الإمام بأخيار: من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، أحمد بن على المقرزي ط. مطبعة التأليف مصر 1985م.
- 6/ البداية والنهاية لابن كثير .
- 7/ الدعوة إلى الإسلام ، بحث في انتشار العقيدة الإسلامية ، لـ توماس . و. أرنولد . ترجمة مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1973م .
- 8/ الرحيق المختوم ص 30 لصفي الرحمن المباركفوري طبع 17 ، دار الوفاء.
- 9/ السلوة في أخبار كلوة ، محي الدين الزنجباري، منشور باللغة الانجليزية نشره A.strong P. 4110-1890 .
- 10/ انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له ، محمد عبد الله النقيرة ، نشر دار المريخ - الرياض .
- 11/ تاريخ الرسل والملوك ، ابن جرير الطبري ، تحقيق الدكتور محمد الفضل إبراهيم .
- 12/ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، لابن بطوطة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، 147/1997م.

13/ جهيئة الأخبار في تاريخ زنجبار ، سعيد بن على المغيري تحقيق عبد المنعم عامر . طبع عيسى بابي الحلبي .

14/ دولة بو سعيد في عمان وشرق أفريقيا ، جمال ذكريا القاسم .

15/ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، للقلقشندي ، نسخة مصورة من الطبعة الأميرية .

16/ مروج الذهب ومعدن الجواهر ، للمسعودي .

17/ وثائق تاريخية وجغرافية عن أفريقيا الشرقية ، المسيو جيان ، ترجمة يوسف كمال ، طبع 1927م .

المجلات والدوريات :

1/ مجلة دراسات إفريقية ، العدد (2) شعبان 146/1986م صادر عن المركز الإسلامي الإفريقي الخرطوم .

2/ حوليات آداب عين شمس ، جامعة عين شمس ، المجلد العاشر .